# كلمة الدكتور عبد الناصر عساف
# في حفل استقباله يتحدث فيها
# عن سلفه الشيخ سليم البخاري

**أيها السيدات والسادة**
**الأستاذ الدكتور رئيسَ المجمع الموقّر،**
**الأساتذةُ أعضاءَ المجمع الكرام،**
**الضيوفُ الأكارم: أساتذةً وزملاءَ وزميلات وأصدقاءَ وطلّاباً ومحبّين،**
**الإخوة والأخوات الأفاضل،**
**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته** (١):

هأنذا أقف بين أيديكم في مقام لم يخطُر ببالي يوماً من الأيام، قدّره الله وأراده فكان كما قال كن فيكون، فله الحمد على عظيم إنعامه، ألقى في صدور أعضاء مجمع اللغة العربية الكرام حسنَ الظنّ بطالب علم يشرُف بخدمة لغته الأم، فاختاروني فيهم تكريماً؛ فلهم ولكلّ من كان له فضلٌ في بلوغ هذا المقام في رأي أو قرار جزيلُ الشكر والامتنان، واللهَ أدعو أن أكون عند حسن ظنّهم عوناً لهم وسنداً في خدمة لغتنا العظيمة التي رماها فِئامٌ من المُحْدَثين بما ليس

(١) الكلمة التي ألقاها د. عبد الناصر إسماعيل عساف في حفل استقباله عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربيّة بدمشق يوم الأربعاء ١٥ رجب ١٤٣٨هـ الموافق ١٢ نيسان ٢٠١٧.

منها، وهي منه بَراء، من مشكلات صدروا فيها عن أوهام وأضاليل وأخطاء في الفهم والتقدير والحكم، واختلف فيها أقوام منهم اختلافاً بلغ أحياناً مبلغَ الخصومة والاتّهام والتدابر، وكلٌّ يدّعي وصلاً بليلى. والغيرةُ على اللغة العربيّة التي تحرّك فريقاً من هؤلاء وأولئك ممّا يجب غير شكّ أن يكون فينا جميعاً، فهي قطعة من دين المرء وعروبته. لكنّ تلك الغيرة لا ينبغي أن تكون كما قيل وحشاً بعيون خضراء، تنتهي بنا إلى خرافة الدبِّ الذي قضى على صاحبه حبّاً حين رماه، وهو نائم في ظلّ شجرة، بصخرة أراد بها أن يطرد ذبابة كانت تحوم حول وجهه، فأهلكته؛ بل يجب أن تكون حبّاً صادقاً ينبُت بالعلم الصحيح والحكمة البالغة والرأي الصائب والرؤية الواضحة. على أنّ من أحابيل النفس البشريّة المراوغة أن تَزَيَّن ثُلّةٌ في الآخرين من بني جلدتنا بالغيرة والحرص شعاراً لها، اتَخِذَتْ منه حصان طروادة، إذْ بلغ بها مبلغاً من كيان اللغة أخذت ترتع فيها بأفانين من العبث والفوضى، تسمّيها بغير أسمائها، وتلك دعوى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب والخراب.

وإذا كان كثير من الناس ينظر في هذا المقام إلى ما يدُلّ عليه الاختيار من منزلة وتكريم، يرَون ذلك، ولا يكادون يرَون غيره، فإني من الذين يشغَلُهم الوجهُ الآخر من الأمر، وهو عظيم التكليف وما ينطوي عليه ويقتضيه من رسالة وأمانة ومسؤوليّة وجُهد وعمل، يتملّكني ذلك ويكاد يُفسِد عليّ ما للمقام من تكريم وتقدير يَسُرُّ النفس ويدغدغ مشاعرَها ويُشبع ضعفاً أقام فيها.

وإنّي هنا لأعِدُ المجمع الكريم ومن كان يحسن بي الظنّ من صديق أو زميل أو محبّ وعداً صادقاً أن أنهض بذلك التكليف وتلك المسؤولية كما يجب؛ وكيف لا، وذلك من عظيم الأمانة التي أُسأل عنها، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾ [التوبة: ١٠٥]؟.

**أيها الحفل الكريم:**

من سنّة المجمع التي استنّها أن يعرّف المرء إذا قام هذا المُقامَ بسلف راحلٍ له من المجمع[٢] تعريفَ تذكير وادّكار، وإنّ من حسن حظّي أن أعرّف هاهنا بعَلَمٍ يجهله كثير من الناس، على الرغم من أنّه كان من طلائع الإصلاح الديني واليَقَظَة الحديثة في سورية كما صدّر الزِّركليُّ ترجمتَه في (الأعلام)، وأحدُ أركان النهضتين الوطنيّة والعلميّة، والنافخُ في بوق التجديد كما وصفته جريدة (العهد الجديد) البيروتية. تحمّل أمانةَ نشر العلم والتوجيه والإرشاد ومحاربةِ الجهالة، كما تحمّلَ أمانةَ إذاعة المعرفة ومحاربة الظلم، وكان صورة الأخلاق الفاضلة الكريمة، ومثلاً متكاملاً جمع بين المعرفة والخير.

ذلكم الأستاذُ الشيخ محمّد سليم بنُ إسماعيلَ الآمديُّ أصلاً البخاريُّ شهرةً، رئيسُ العلماء وشيخُ الأحرار.

وُلِد البخاريّ في دمشق سنة ١٨٤٨ لأب كان من ضباط الدرك، وتعلّم في المدارس التحضيريّة التركية، وأخذ علوم العربيّة من نحو وصرف وبلاغة، والعلوم العقليّة من منطق وحكمة وجدل، والعلوم الشرعيّة من أصول فقه وكلام وتفسير وحديث من علماء دمشق في زمنه، وقد لازم بعضَهم، وربطته ببعضهم روابطُ المحبّة والولاء كالمحدّث بدر الدين الحسني والشيخ طاهر الجزائري. وجاور بمكّة المكرّمةِ حين حجّ حِجّة

(٢) كان من خطة المجمع منذ عام ١٩٢١ اقتداءً بالمجامع العلميّة الأجنبيّة أن يُعرّف أحدُ أعضاء المجمع بالعضو الجديد في جلسة القبول، فيجيبه العضو المقبول بكلمة مناسبة، ثمّ أُضيف شيءٌ جديد في الموضوع، وهو أن يكتب الأعضاءُ ملخّصاً لتراجم حياتهم وآثارهم لتُسجَّل في السجلّ المخصوص. تاريخ المجمع العلمي العربي، أحمد الفتيح، ص ٢٣٧.

الإسلام ستة أشهر، تلقّى فيها العلم من بعض علماء مكة ومفتيها كالشيخ رحمة الله الهندي والشيخ أحمد الدهّان والشيخ زيني دحلان.

تولّى منصب الإفتاء على حداثة سنّه في كتيبة المدفعيّة من فيلق الشام في الجيش العثماني بعدما نجح في اختبار الآستانة (إسطنبول) نجاحاً مكّنته منه غزارةُ علمه وقوّة عارضته، مع إجادته التكلّمَ والكتابةَ باللغة التركيّة ومعرفته قليلاً من اللغة الفارسيّة، وظلّ على ذلك زهاء ربع قرن، كثر فيه عارفوه، وذاعت شهرته العلميّة في بلاد الشام وبعض الأقطار المجاورة، وهيّأ له ذلك مخالطةَ كثير من رجالات العلم، ومنهم محمد عبده ورشيد رضا، وكان بينه وبينهم أثناءَ ذلك مناظراتٌ علميّةٌ شهِدت له بغزارة علمه وعُلُوّ منزلته.

وكان الأستاذ من دعاة الإصلاح السياسي والديني، وقد لقي في ذلك من التضييق والأذى ما لقي، وكان من ذلك أن سُجِن ونُفي. حتى إذا زال حكم العثمانيين عاد إلى دمشق، فعُيّن في العهد الفيصليّ عضواً في مجلس الشورى، ثمّ نُقِل إلى مجلس المعارف الأعلى، ثمّ انتُخِب سنة ١٩٢٠ عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي، ثمّ أُسنِدت إليه رئاسةُ العلماء فأعاد إلى المؤسسة الدينيّة هيبتَها شيئاً فشيئاً بعد أن تمكّنت منها الفوضى، حتّى إذا كان العاشر من آذار سنة ١٩٢٤ اعتزل معتكفاً إلى أن تُوفّيَ في الرابعِ والعشرين من تشرين الأوّل سنة ١٩٢٨، فطُوِيَت بذلك صفْحةٌ وضّاءة من صفَحات العلم والوطنيّة والإخلاص.

وهذه الترجمة المختصرةُ لا تحول دون تبيين بعض المفاصل المهمّة المفيدة من سيرة الأستاذ الشيخ سليم البخاري، وربّما أشرقت بذلك روحُ السرد وأعلن الكلامُ جمالَه، وأفشى الإجمالُ أسراراً خبّأها في طيّاته:

*** مؤلّفاته:**

لم تكن الكتابةُ والتأليف ممّا اشتُهِر عن الأستاذ سليم البخاري، على

الرغم من تلك الرغبة التي كانت تراوده مذ كان في سنّ طلب العلم؛ ذلك أنه صنّف لأول عهده بطلب العلم رسالةً صغيرة في المنطق، كتبها بلغة سهلة عذبة، تنفي عن هذا العلم تعقيد العبارة، وصعوبة الفهم، وعرَضَها على أحد مشايخه، فسخِر منه وأنّبَه، وقهره بالتثبيط والزجر قهراً[٣]، وسقى ميلَه إلى التأليف ورغبته في البحث بملح أجاج، فأهلك ذلك الميلَ منه إلّا قليلاً، وكانت هذه الواقعةُ محطّةَ انكسار مبكّرةً تركت في نفسه نُدوباً امتدّت طويلاً؛ إذ فترت همّتُه في ذلك، ولم يعد إلى التأليف، على جلالة قدره، وكثرة علمه، وقوة قلمه، وشدة بيانه، إلّا ما ندر.

**ومن أثر ذلك النادر:**

- رسالةٌ (في آداب البحث والمناظرة)، وهي مجهولة المصير.
- كتاب (حلُّ الرموز في عقائد الدروز)، وهو مطبوع[٤].
- رسالة في بضع صَفَحات في ترجمة القاضي العالم المفسّر قطب الدين الشيرازي، محمود بن مسعود (ت٧١٠هـ)، استنسخها شكري العسلي، ونُشِر ملخّصُها في مجلة (المقتبس)[٥].
- رسالة في الكلمات المعرّبة لابن كمال باشا (ت ٩٤٢هـ) عُني بها ونشرها الأستاذ سليم البخاريّ عن نسخة خطّيّة بمكتبة

(٣) التشجيع، علي الطنطاوي، مجلة الرسالة، ١٩٣٥، ع ١٠٦، ص ٢٢. عن المكتبة الشاملة.

(٤) طُبِع بعنوان (حل الرموز في عقيدة الدروز)، دراسة وتحقيق حمد بن صالح الحمِيده، مكتبة دار النصيحة - المدينة المنورة، ط١، ٢٠١٤. وكان أ. محمد كرد علي قد لخّص منه شيئاً في (المقتبس) ١٩١٠، م ٥، ٤/ ٢٥٠-٢٥٧، عن أصل الدروز، وقال: «ملخّصة من كتاب (حلّ الرموز في عقائد الدروز) لأستاذنا سليم أفندي البخاري، من علماء دمشق، وهو لا يزال مخطوطاً لم يُنشر بالطبع». ومنه نقل أيضاً في كتابه (خطط الشام) ٦/ ٢٦٤-٢٦٧.

(٥) المقتبس، ١٩٠٧، م ٢، ١/ ٣-٧.

جميل الشطي، في مجلة (المقتبس) في أربعَ عشرةَ صفْحةً[٦].

- وله كما قال الأستاذ محمّد سعيد الباني: «تعليقات ومقالات في موضوعات شتّى حفَلت بها حواشي الكتب التي طالعها في حياته، تدلّ على تمكّن من أسرار الأدب والشريعة».
- وكان له إسهام في نشر بعض الكتب والرسائل والإشراف عليها وتصحيحها. فقد أشرف مثلاً على طباعة كتاب الشيخ علاء الدين بن عابدين (ت ١٨٨٩) (الهدية العلائيّة) في الفقه الحنفي حين طبع أول مرّة، بمطبعة مجلس المعارف سنة ١٢٩٩هـ، وصحّحَ كتابَ (إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد)، لابن الأكفاني محمّد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري(ت ٧٤٩هـ)، وهو كتاب نفيس ذكر فيه أنواع العلوم وتصنيفَها ومنافعَها ومراتبَها، صحّحه سليم البخاري في طبعته التي طُبِعت ببيروت، سنة ١٣٢٢هـ؛ كما وقف عليه الشيخ طاهر الجزائري تصحيحاً ومعارضة ومقابلة على كثير من نسخه.

على أنّ ما يدلّ عليه ذلك كلُّه من علم الأستاذ البخاري وتمكّنه من علوم العربية والشريعة، لا يوازي - كما قال معاصرُه وتلميذُه الباني - مجالَ علمِه الواسع.

والآثار التي انتهيتُ إليها من ذلك، ووقفت عليها، تضيء خطوطاً من جانب الكاتب المؤلّف في شخصية الأستاذ الشيخ، ولا تؤلّف صورةً متكاملة عنه، فغياب رسالة (في آداب البحث والمناظرة) مثلاً، إذ لم أحظَ بها أو بأثر يدلّ عليها، يترك في تلك الصورة مِساحة فارغة؛ لأنّ هذه الرسالة

(٦) المقتبس، ١٩١٢، م٧، ١٠/ ٧٢١-٧٢٧، و١١/ ٨٠١-٨٠٧.

ممّا يمكن في تقديري أن يضيء جانباً رئيسياً في تكوينه المعرفي والمنهجيّ ويكشفَ بعضَ آرائه، لما عُرف به واشتُهِر عنه في فن البحث والمناظرة.

والتصحيح الذي نهض به البخاري فيما صحّحه من كتب أو أشرف على نشره يدلّ كما تنبئ نصوص بعض تلك الكتب، بما كان فيها من تماسك وسلامة وصيانة من الزلل، على قراءة خبير وفقه عالم ودقّة نظر وأناة، لكنّه يغمِط الشيخَ بعضَ حقّه، لأنّ تلك الكتب خِلْوَةٌ ممّا يدلّ على منهجه في ذلك وحدود جهده وأثره فيه، وفي مثله تكون شخصيةُ المصحّح العلميّة، وكيف لك أن تعرف ذلك كلّه حقّ المعرفة، في كتب غابت عنها الحواشي والتعليقاتُ، وخلت من المقدمة والخاتمة اللتين تنصّان على ذلك وتصرّحان به، واختفى من نصّها العلاماتُ المادّيّة الدالّة على ضروب التصحيح والاستدراك والضبط؟.

والبقيّة الباقية من آثار الأستاذ البخاري التي وقفت عليها تُنبئُك ببعض سمات منهجه في التأليف، من أمانة تطلّ عليك من تصريحِه بمصادره، وتبيينِ هيئة نقله من تلك المصادر إمّا كان تلخيصاً وإمّا كان بلفظه، وتحديدِ النصوص التي نقلَها من مظانّها؛ ومن علمٍ مؤيّدٍ بالنصّ والدليل يصرفُه ما أمكن عن حديث الذات وانفعالاتها الخاصّة، كأنّه العِلْمُ يستوطن ضفافَ الحياد. وكتابُه (حلّ الرموز) دليل على ذلك؛ ففي هذا الكتاب يحدّثك البخاريُّ بالنصّ والدليل عمّا تجهله من دقائق في معتقد الطائفة الدرزيّة، - وهي طائفةٌ أهلُها منّا، وهم شركاءُ لنا في الوطن في ماضيه وحاضره ومستقبله، وقطعةٌ من نسيج المجتمع المتنوّع - يحدّثك حديثاً عَزُوفاً عن المشاعر والحساسيات الخاصة، بعيداً عن النَّبْز أو الهجاء والتهجّم، فكأنّه كان يقيّد نفسَه وعبارته بالوَرَع، وكأنّك به وصّافٌ جُرِّد من مشاعره، ونأى

عن تلك الدروب الضيّقة التي تعشّش فيها رواسبُ النفس التي تنمو بالأثرة، وتضطرم فيها نارُ الكراهية، ويقتلها الهواء النقيّ، وذلك بعض ما كان يؤكّد تلك الروحَ السَّمْحةَ التي عُرِفت عنه.

ورسالة (الكلمات المعربة) لابن كمال باشا التي عُني بها الأستاذ البخاري ونشرها في مجلة (المقتبس) تُطلعك على شيء من ملامح المنهج العلمي في تحقيق نصوص التراث من إقامة النصّ على وجهه، وضبط بعض ألفاظه ضبطَ نصٍّ، وتصحيحِ ما كان في النصِّ من سَقَط أو تحريف أو تصحيف، وبيانِ معنى بعض ألفاظه وتبيينِ بعض ما قدّر الحاجةَ إلى تبيينه، ونسبةِ ما كان فيه من شعر إلى قائله، ومعارضة مادّة النص ببعض أصول العربيّة ومصادرها. يدلّك على ذلك كلّه تعليقاتُ الأستاذ البخاري في حواشي النصّ، تلك التعليقات التي كان يخلع عليها عبارة العلماء احترازاً وتوقُّفاً، فإذا به يقيّد ما لم يقطع به من الأمر هنا وهناك بكلمة «لعلّ»، ويتوقّف عن البتّ فيما لم يعرفه، أو لم يهتدِ إليه، أو لم يظهر له فيه وجه. ولعلّ في بعض تلك التعليقات ما يزكّي وصفاً وَصَفَ به الشيخَ بعضُ مترجميه، إذ قالوا: لُغويٌّ كبير.

وتلك البقيّة الباقية تشهد أيضاً لما قاله بعض مترجمي البخاري من أنّ «أسلوبه في الكتابة أسلوب العلماء، لا عيب فيه من حيث البلاغة والفصاحة».

*** العلم والعمل:**

جمَع الأستاذ الشيخ سليم البخاري في حياته بين العلم والعملِ، وبهما وصفه من عرَفه وخبِره وترجمه، فقيل: العالم العامل. وتلك مزيّةٌ دالّة على رضًا وتوفيق، إذا أُوتيَها المرءُ كانت له منزلة ومكانة. ومن أمارات ذلك ودلائله تلك الأخلاقُ الرفيعة التي وصفها الأستاذ محمد سعيد الباني (ت ١٩٣٣) إذ

وصف سجاياه وأخلاقه، وقد عاصره وخالطه وأقام معه في منفاه بالأناضول في غرفة واحدة، وهو من أبرز من ترجمه وعرّف به في مقالة نشرها في مجلة هذا المجمع العريق(٧)، فقال: «كان - رحمه الله - على جانب عظيم من الذكاء الفطريّ وسرعة الخاطر، وقوّة الحافظة، سليمَ الصدر لا يُضمِر السوء أو الغشّ لأحد، عصبيَّ المزاج، جميلَ المحيّا، رقيقَ الشمائل، حَسَنَ المعاشرة، يحبّ النظافةَ والإتقان والترتيب، ويرغب في وضع الأشياء موضعها، وكان مهيباً وقوراً بهيَّ الطلعة، جامعاً بين أناة الشيوخ وهمّة الشبّان، ماضيَ العزيمة، صبوراً على المصائب، مقداماً على عظائم الأعمال، شديدَ الغيرة على الوطن وأهله، صُلباً بدينه ومبادئه القويمة، يكره التنطّعَ في الدين والتعصّبَ الممقوت، كثيرَ التواضع مع إباء نفس، فلا يتزلّف ولا يحابي، ولا يتمجّد بالمجد الكاذب والفخفخة الفارغة، فلم يتذرّع بالحصول على الأوسمة الخلّابة والرتب الكذّابة، بل كان يهزأ بها، وكان خضّاعاً للحقّ صدّاعاً به، فإذا ثبت عنده أنّ هذا الشيء حقّ يخضع له بدون مكابرة ولا مماراة، وأنّ هذا باطل يجاهر بمناوأته بدون تقيّة ولو توقّع الخطر، وله مواقفُ عجيبةٌ مع أولياء الأمور في كلّ دور من أدوار الحكومات المتعاقبة».

ومن تلك الأخلاق أنّ مجلسه كما وصفه بعضُ من نعاه يومَ رحَلَ «كان مجلس علم وأدب، ويأبى أن يُذكَر في حضرته إنسانٌ بسوء».

هذه أخلاق رجل من لحم ودم، شهِد له بها بعضُ من عاصره وخالطه في السرّاء والضرّاء؛ لا صفاتُ رجل من ورق اختلقه فنّانٌ حاذقٌ، ودبّجت صفاتِه يدُ منشئ وصّاف.

(٧) العلّامة سليم البخاري، محمد سعيد الباني، مجلة المجمع العلمي العربي - دمشق، م ٩/ ١٢: ٧٤٢-٧٤٩.

ومن ذلك زهدُ الشيخ في المناصب؛ فلم يكن ممّن يسعى إليها سعيَ من شُبِّهت لهم المناصبُ نعيماً مقيماً لا ينفد، بل كانت تأتي له على قدم، أو يُلَزُّ إليها لزّاً، يُجيب فيها دعوةَ من يحسن الظنَّ به ويختاره لها، ما وجد فيها مصلحة عامّة محقّقة. وكانت تلك المناصبُ التي درج فيها وتقلّدها أمانةً لم تستولِ عليه إلّا كما تستولي الأمانةُ على حاملها، فلم يُشغَف بها شغفَ المتهالك على الدنيا وزخرفها، ولم يتّخذْها تُكَأَةً لمآربَ له تُغرِي بها النفسُ وتشتهيها من جاه أو سلطة أو مال، بل كان يريد منها تحقيقَ مصلحة عامّة للمجتمع أو للدين أو للوطن. ولو كانت مطمحاً يتطلّع إليه يحقّق به أمانيَ النفس ويرضي بها غرورَها، وأرادها طوال حياته يتقلّب في مغانمها لكانت له كما أراد. وكيف تكون تلك المناصب مغنماً لمن كان لا يملك موردَ رزق له سوى وظيفته؟.

ومن أظهر الشواهد على ذلك عُزوفُ الشيخ عن بعض ما عُرِض عليه من تلك المناصب، أو قَبولُ بعضها قبولاً مقيّداً، أو اعتزالُ بعضها إذا ما وقع فيه الإخلالُ بما كان يعقِده عليه من مقاصدَ ومصالحَ عامّة؛ فقد رغب عمّا عُرِض عليه من شَغْلِ وظيفة فتيا دمشق التي شغَرَت ثلاث مرّات، وأجاب واليَ دمشق إسماعيل فاضل باشا[٨] إلى ما أراده في أن يكون عضواً في

(٨) كان إسماعيل فاضل باشا والياً لدمشق سنة ١٣٢٨هـ، كما ورد في كتاب (ولاة دمشق في العهد العثماني)، لصلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٤٩، ص ٩٥. وذكر أ. محمد سعيد الباني أنّ الأستاذ سليم البخاري طلب بعد إعلان القانون الأساسي (الدستور) إحالتَه على التقاعد، فأُجيب طلبُه ولزم دارَه، وعكف على مطالعة كتبه ومزاولة درسه وبحثه، لكنّ أحد ولاة سورية إسماعيل فاضل باشا أراد أن يخرجه من عزلته، وأراده بإلحاح أن يكون عضواً في مجلس الأوقاف. وبعد أخْذ وردٍّ وشرْط شروط قبِل وتذرّع بمشاريع نافعة حال دون إتمامها عزلُ الوالي.

مجلس الأوقاف بعد أن وعده الوالي بإجابة مطلبه في تحقيق بعض المشاريع النافعة، واعتزل منصب رئاسة العلماء عند إعلان خلافة الملك الحسين بن علي، لمّا حاولت الحكومةُ التدخّل في الشؤون الدينيّة، إذ كلّفته أن يُنذِرَ خطباءَ المساجد بقطع رواتبهم إذا ما ظلّوا يدعون للملك، فرفض واعتزل منصبَه، فلقّبته الصحفُ حينئذ بشيبةِ الحمد(٩)، وملأت ما بين أعمدتها بسطور الثّناء عليه.

وعلى مثل ذلك يدلّ ما كان من الشيخ في آخر حياته؛ إذ تقلّد قُبيلَ مرض وفاته رئاسةَ مؤتمر الأوقاف الإسلاميّة إجابةً لدعوة منتخبيه الوافدين إلى دمشق من أنحاء بلاد الشام، لما بدا له في ذلك من تحقيق مصلحة يسعى بين يديها حسنُ ظنّ أولئك العلماء به، فما كان منه إلّا أن غالب عجزَ الهرَمِ وآلامَ السقَم، وكان ما أرادوه.

*** الإصلاح:**

كان الإصلاح السياسيُّ والدينيُّ من أهمِّ ما شغَل البخاريَّ في حياته، ينافح بهما الظلمَ والفساد، ولو قلتَ: بل كان أهمّ ما استولى عليه وتمكّن منه ونهض له لَمَا أخطأتَ. كان ينادي بما تميل إليه نفسُ كلِّ حرٍّ من حريّة ومساواة وعدل، وينافح عن ذلك، ويقاوم ما تكرهُه النفسُ السويّةُ ويمُجُّه الفكرُ الصحيح من ظلم وبطش واستبداد. وقد وافق في ذلك تلك الأهدافَ المعلنةَ لجمعية (تركيّا الفتاة) من إطلاق الحريّات وإقامة حياة نيابيّة وإعلان

(٩) شيبةُ الحمد: اسم عبد المطّلب جدّ النبيّ محمّد ﷺ عند الجمهور. وسُمِيَ بذلك لأنّه وُلِد، وفي رأسه شيبةٌ، وذُكِر الحمد في اسمه لجوده وسماحته، ولكثرة حمد الناس له؛ لأنّه كان مفزع قريش في النوائب، وملجأهم في الأمور. انظر: مناحل الشفا ومناهل الصفا بتحقيق كتاب شرف المصطفى، ١/ ٣٣١، والاستيعاب، ١/ ٢٧، وعمدة القاري، ١٦/ ٣٠١، وإرشاد الساري، ٦/ ١٨٣.

الدستور، فانخرط فيها زهاء ثلاثين عاماً، حتّى كان إعلانُ القانونِ الأساسيِّ العثمانيِّ، أي الدستور، إعلاناً ثانياً سنة ١٩٠٨. ولمّا انجلت له حقيقةُ الاتّحاديّين، وبدا له سوءُ طويّتهم ومكرُهم، تركهم وانسحب من جمعيّتهم جمعيّة (تركيا الفتاة)، ثم عارضهم بعد حين، وانتظم في (حزب الحريّة والائتلاف) الذي اتّخذ اللامركزيّة شعاراً لها، ونادى بمنح العرب حقوقَهم المغصوبة، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وانتُخِبَ رئيساً لشعبته في دمشق. بيد أنّ ذلك لم يطُلْ، إذ رأى في (حزب الحريّة والائتلاف) ومَنْ وراءه عجزاً وضعفاً لا يُضاهى، فانصرف عنهم، وأخذ يطالب مطالبةً عادلةً بحقوق العرب المهضومة، التي ارتفعت راياتها في ذلك الزمان، الذي أخذ فيه إحساسُ الشعب العربيِّ بالقوميّة ينمو ويتعاظم.

وقد لقي الشيخ في ذلك من الجلاوزة والعيون والسُّعاة ما لقي، فكم من مرّة آذَوه واضطهدوه وضيّقوا عليه، وكم من مرّة دهموا بيته ونبشوا مكتبته!، وكان كلّما سرت في الناس دعوة جديدةٌ، أو صدر كتابٌ يدعو إلى التجديد والإصلاح؛ استُدعي هو وصديقُه الشيخ طاهر الجزائري للمساءلة والتحقيق. وأشدّ ما كان من ذلك سجنُه، إذ سجَنَه جمال باشا السفّاح شهرين في دائرة الشرطة، لمناوَأة الحكومة التركيّة، والتعصّب للعرب، ثمّ نفيُه وأسرتَه إلى الأناضول.

لكنّ الشيخ ثبت واصطبر، وكان تمثالَ الثبات ومثالَ المضاء، وكان اصطباره وثباته مع وضوحه وبعده عن المصانعة، دليلاً ناهضاً وحجّة دامغة على صلابته في مَبْدئه، فكأنّه يقول: المبدأ حياة لا صورة، والقيم الخالدة التي تمنح الإنسان إنسانيّته، وتخلع على الحياة معناها، تحيا بالفعل والسلوك، لا بالشعارات ولا بالكلام المكتظّ بالألفاظ الفخمة والنَّبَرات العالية، بل إنّ ذلك يقتل الإحساسَ بها، ويعطّل مفعولَها.

وإذا كانت تلك حالُه في الإصلاح السياسيّ، فما حالُه في الإصلاح الدينيّ؟

كان من مظاهر إصلاح الشيخ في هذا الباب وأماراته الدالّة عليه، ما كان من سعيه إلى تنظيم الشؤون الدينيّة وضبطها شيئاً فشيئاً، حين أُسنِد إليه في شيخوخته منصبُ رئاسة العلماء، إذ حاول خلال ذلك أن ينفخ فيها بروح التجديد، ويوفّقَ بين الدين ومقتضيات العصر، فألّف مجلسَ الشورى الشرعيّةِ الذي جمعه ومفتيْ المذاهب الأربعة وأمينَ الفتوى وثلّةً من خيرة العلماء المجدّدين والمحافظين، وتفرّعت منه (لجنةُ تحقيق الفتوى) التي كانت تنظر في كلّ ما يصُدر من فتاوى في أنحاء البلاد، - وفي ذلك ما فيه من ضبط الفتوى وتنظيمها وحفظها من الفوضى والاختلاف - وتتصدّى لما يقترحُه عليها من فتاوى عصريّة تقتضيها روحُ العصر ولا تنافي أصول الدين وقواعدَه العامّة، وبذلك تصطبغ الفتوى بما يشبه الإجماع، وتكتسب الصفةَ الرسميّة التي تمنحها الانتشار والشيوع، وتراعي التوفيقَ بين الدين والحياة ومستجدّات العصر، والأصالةِ والتجدُّدِ، وتنأى عن الاستبداد بالرأي والانفراد بالفُتْيا.

ومن ذلك القانونُ الذي أصدره حينئذ يمنع فيه الوعظَ والإرشاد والتدريس في المساجد لغير المدرّسين الموظّفين المشهود لهم إلّا بوثيقة رسميّة من المفتين أو رئاسة العلماء، وفي ذلك ما فيه من ضبط التوجيه والإرشاد، ومنع فوضى التدريس ودَجَلِ الجهّال.

وكان من صميم دعوته إلى الإصلاح التحذيرُ من البدع والخرافات، والسعيُ إلى استئصالها؛ لما تنطوي عليه من إزراءٍ بالعقل وتنقُّصٍ من المكانة الإنسانيّة التي مُنِحَها الإنسانُ وشُرِّف بها، واجتراءٍ على الدين باختلاق ما ليس منه ممّا لا يوافق مقاصدَ الشرع ومصالحَ العباد.

*** الكتاب:**

كان الكتابُ من أعنى ما عُني به الشيخُ، وكيف لا، وهو من ركائز الحضارة الإنسانية المعرقة، ومصدرٌ رئيسيٌّ من مصادر العلم والمعرفة والثقافة، له أثره الفعّال في نهوض الأمم، وبثِّ الوعي، ومحاربة الجهل والظلم؟ فكان له خيرَ رفيق وزادٍ طوال حياته.

وإذا كان طلبُ العلم وتعليمُ الطلبة العلومَ النقليّة والعقليّةَ اقتضى من الشيخ في فتوته وكهولته الاطّلاعَ على ضرب معيّن من كتب العربيّة وأصول الفقه والكلام والتفسير والحديث والمنطق، فإنّه أخذ يمعن بعد زمن، ولا سيّما في كهولته، في كتب الأدب العربي وأسراره وكتب التاريخ والطبقات والملل والنحل وأمّهات كتب الشريعة، ويطّلع على المؤلفات الحديثة في علم الاجتماع والسياسة والحكمة والعلوم الكونية المترجمة، وعلى الصحف والمجلات الدينية والعلميّة. والاطّلاعُ على تلك الكتب والصُّحف والمجلّات بتنوّعها الظاهر في ذلك الزمان دالٌّ على تطلّعِ متنوِّرٍ حرّ، ورؤية مثقّفٍ واسعة، ومفضٍ إليهما.

وكان من منزلة الكتاب عنده إذا عثر على كتاب يلائم ذوقه ألَّا يذره حتى يطّلع عليه بإمعان من أوّله إلى آخره. وكان له في ذلك تعليقات ومقالات في موضوعات شتّى حفَلت بها حواشي الكتب التي طالعها تدلّ على عميق قراءة ودقيق نظر، وعلى تمكّن من أسرار الأدب والشريعة. ومن ذلك تعليقات له على كتاب (ألف باء)البلوي (ت ٦٠٤هـ) نوّه بها الكاتب الفلسطينيّ عبد الله مخلص (ت ١٩٤٧) في مجلة (المقتبس)، ووصفها وصفَ إنشاء فقال[١٠]: «كعقودٍ نضيدةٍ في جِيْدِ غادة حسناء».

(١٠) المقتبس، ١٩١٢، م ٧، ٥/ ٣٥٨.

ومن شواهد ذلك الاهتمامِ بالكتاب ولعُ الشيخ باقتناء آثار السلف، والحرصُ على جمع المخطوطات والنفائس، حتى كان له من ذلك مكتبة حافلة بالمخطوطات النادرة. وكان له في ذلك فهرس سمّاه محمّد كرد علي «فهرست سليم أفندي البخاري»، ضمّ فيما ضمّ أسماء مخطوطات المدرسة الأحمدية(١١). ومن هذا القبيل من الاهتمام أن يتصدّى لنسخ بعض الكتب القيّمة بخطّه الجميل، ولا سيّما حين كان عضواً في الجمعية الخيريّة التي كانت برئاسة الشيخ علاء الدين عابدين.

وإلى ذلك كان الشيخ ممّن عمِل على إنشاء المكتبات، وتشجيع القرّاء والشباب على ارتيادها، وإرشاد المثقّفين للاطّلاع على ما فيها من كتب ومخطوطات، وتوجيه القادرين منهم على تحقيقها ونشرها. وكان له في هذا الباب ولصاحبه الشيخ طاهر الجزائري فضلٌ كبير في إنشاء المكتبة الظاهرية سنة ١٨٨٠، وجَعْلِ المدرسة الظاهرية مقرّاً لها.

وإلى هذا وذاك كان الشيخ ممّن عُني بنشر بعض الكتب والرسائل والإشراف عليها وتصحيحها. ومن ذلك مثلاً كتاب الشيخ علاء الدين بن عابدين (الهدية العلائيّة)، وكتابُ ابن الأكفاني (إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد).

*** البخاريّ مجمعياً:**

كان البخاريُّ رحمه الله مجمعيًّا خفِيَ على الناس حالُه، فقد انتُخِب عضواً عاملاً في أول جلسة للمجمع إثر عودته إلى نشاطه في الرابعَ عشرَ من شهر أيلول سنة ١٩٢٠، لكنّه لم ينتهِ لنا ما يدلّ على أثره في هذا المجمع، إذ لم يكن له في مجلة المجمع العريقة أو محاضراته أو منشوراته أيُّ مشاركة أو أثرٍ ظاهرٍ يدلّ على حاله فيه؛ فكأنّي به كان يقتصر على

(١١) المقتبس، ١٩١٠، م ٥، ٨/ ٥١٨.

مؤازرة المجمع مؤازرةً مادّية ومعنوية، يمدُّه بما يمكن أن يمدَّه به ويؤيّدُه ويزيّنُه للناس، وكأنّما شغلته مشاغله العامّة والأمور الإدارية التي كان يتولّاها والتوجيه والإرشاد عن المجمع.

*** ملامح عامّة من منهج البخاريّ:**

إذا أردت أن تنظر في سيرة الأستاذ الشيخ البخاري فيما انتهى إلينا منه بيّناتٌ وأدلّة، وأن تنسِج منها خيوطَ منهجه الذي كان يجري به في العلم والتعليم والسياسة والتوجيه والإرشاد وإدارة ما أُسنِد إليه من مُهمّات ومناصب، بدا لك من ذلك معالمُ وصُوَى لا يخطئها نظر ناظر أو تأمّل متأمّل. ومن ذلك:

١- التنظيم ونَفْيُ الفوضى، وما يتعلّق بهما من وضع الأشياء في مواضعها، وإعادةِ ما انحرف منها عن سكّته إلى نصابه، وإسناد الأمور إلى أهلها الخبراء الأمناء، ولا أظنّك تجهل أنّ التنظيم مظنّة الإنتاج الجيّد، وبيئة صالحة للعمل الناجع المفيد، وأنّ الفوضى ورديفَها الارتجالَ مهلكةٌ للجهد والوقت والمال، وبهما تنبت الأعشاب الضارّة التي قد تُميت النافع المفيد من النبت والشجر.

٢- التحقيق: كان من أمر الشيخ أن تَرَكَ تقليدَ ما لم يُبنَ على دليل، وسلك فيما آنسه أو أراده سلوك النظر والاستدلال. وهذا مراد محمد رشيد رضا في (المنار) إذ وصف الشيخَ البخاريَّ بالعالم المستقلّ، ويدلّك على ذلك قوله ثمّة: «والعلم الصحيح هو العلم الاستقلاليّ المبنيّ على الدليل»[١٢]. وبهذا كان البخاري في رأيه وعقله استدلاليًّا لا إمّعيًّا. ولعلّ

(١٢) مصاب مصر والشام برجال العلم وحملة الأقلام: الشيخ محمد جمال الدين القاسمي، مجلة المنار - حزيران ١٩١٤، م ١٧، ٧/ ٥٥٩.

غذّى ذلك عنده ما اشتُهِر عنه من نُزوع إلى البحث والمناظرة التي كانت مناظراته العلميّة مع بعض رجالات العلم في الأمصار شاهداً لها ودليلاً على غزارة علمه.

٣- مدافعة العَنَتِ والمشقّة وما يفضي إليهما من تزيّد وابتداع بغير حقّ وخرافاتٍ وقولٍ بغير علم وتنطّعٍ وتعصّب. ومن الصور الدالّة على ذلك ميلُ البخاريّ إلى تهذيب المسائل الفقهية المطوّلة وتحريرِها على مقتضى الزمان وأهله وتلخيصِها بما يوافق روحَ العصر لئلا يكونَ لمتقوّل أو مرجف أن يقول: إنّ الإسلام يمنع تقدّم أهله في المدنيّة الحديثة، وأنّ كتبَه تحول دون التجديد والتطوّر. ومنها ضبط أمور الفتوى، وصيانتها من الاضطراب، ومراعاة أحوال الناس ومستجدّات حياتها.

٤- حفظ هيبة العلم وكيان الدين من التعدّي والاجتراء، فقد كان حريصاً على أن يكون للدين كيانُه المستقلُّ الذي يحفظ له هيبته، فلا يكون سلعة تباع وتشرى، فكم من عالم دين كان ألعوبةً بيد هؤلاء وأولئك سقط من أعين الناس لمّا أهان نفسه وعلمه ورسالته !.

وقد بدا لك من قبلُ أدلّةٌ شاهدةٌ على ذلك. ومن شواهد ذلك أيضاً عملُه إذ كان في مجلس الشورى على فرض رواتبَ شهريّةٍ لبعض العلماء المعوزين المنزوين الذين لا يعرفهم إلّا العلماء. وتلك لفتةٌ تنمّ على خُلُقٍ كريم، ورأي حكيمٍ غيورٍ حريص على كرامة العلم وأهله، كأنّ لسان حاله في ذلك يقول: إنّ للعلم أخلاقَه وآدابه التي تحفظه وتحفظ أهله من صدأ الدنيا، فيبقى لهما ذلك الألقُ الذي يشير إليه الناس من بعيد، كأنّهم يرونه مقدّساً لا ينبغي أن يُمَسَّ، وإنّ كيان العلم بِبِنْيته الرصينة ومنهجه المسدّد وغايته النبيلة يهتزّ في أعين الناس إذا اهتزت فيه تلكم الآدابُ والأخلاق،

وإذا ضيّعها أهلوه وقعوا في شرك الواقع المرّ، ومستنقع الضعف البشري، وإنّ للعلم كبرياءَه الذي لا يباع، وإن كرامة العلم والعلماء يجب أن تُحفَظ في السرّاء والضراء، وأن يُعترَف لهم بالجميل، وتُحفَظَ حقوقُهم بكثير من التقدير والتَّجِلّة، ولو آلت بهم الأيام إلى التقاعد والاستقالة.

٥- الغاية الصحيحة والهدف النبيل: كان الأستاذ البخاري من الرجال الذين تحرّكُهم الغاياتُ العليا والأهدافُ النبيلة، ولا تستعبدهم صغائرُ الحياة، وتشغلهم عن عليائها، فكان الوطنُ والدِّين ومنافحةُ الظلم والفساد، والعلمُ والكتاب والخلق القويم نَصْبَ عينيه، يسعى إليها سعيَ من يرى أنّه خُلِق لها. ومن كان ذلك وطناً له وعنواناً كان ملحاً تزكو به الحياةُ وتنعقد الآمالُ وتنمو الأوطان.

**أيها الحفل الكريم:**

هذا قولُ من نظر إلى الشيخ البخاري من بعيد، وتراءى له من أمره ما تراءى، وقرأ بعضَ ما تناقله مترجموه قراءةَ معنًى امتدّ فيها شيءٌ من تفسير وتأويل، فبدا له فيها حريصاً على أن يمنح الأشياء معانيَها، وأن يُبعِد عنها الفوضى، يحفظَ لها نصابها، ويردَّها إلى صراطها المستقيم. هذه كلمات نسجتُها ممّا تناثر في بعض المصادر والمراجع، تُعرِّف بجوانبَ من شخصيّة الأستاذ سليم البخاري تعريفاً لا يحُدُّه ولا يستوعبه ولا يختصره، بدا لك فيها الشيخ يلوح من بعيد بعيد، كلّما حاولت أن تلتقطه أفلت من يديك وفَرّ في بحر الزمان، كأنّه خيط من دخان، لكنّ عبق المعاني الجميلةِ منه والقيمِ الخالدة يملأ عليك أنفاسك ! فرحمه الله في الخالدين.

**أيها الحفل الكريم:**

إنّ من واجب المرء في مقام كهذا المقام أن يشكر من كانت له يدٌ عليه

في علم أو معروف أو كلمة طيّبة، وما أكثرَهم ! ولو تركتُ النفسَ على سجيّتها تحصي كلَّ من كانت له عارفةٌ عندي لما اسطاعت ذلك، ولما بقي منّي شيء، فإنّي عبد ضعيف خلقه البارئ، وسُقِي بكرم خلقه ومعروفهم وفواضلهم، سقَوه من ظمأ، وأطعموه من جوع، وآمنوه من خوف، وعلّموه من جهل، فجزى الله عني خيراً في الأوّلين والآخرين كلّ من كان له عليّ فضل، وله عندي عارفة.

**أيها الحفل الكريم:**

ما من ريب في أنّ اللوحة التي خطّتها اليوم يدُ القدر لوحةٌ جليلة مَهيبة! وما كان أجملَها لو اكتملت! وهل تكتمل لوحةٌ اختطفت منها الحربُ فرحَها وأجمل معانيها؟! وكيف تكتمل، وقد أنشبت الحربُ فيها أظفارها، وألقت عليها بظلالها، وسرقت منها بريقَ ألوانها، وبثّت فيها خيوطاً سوداً طغت على البياض والخضرة والزرقة وسائر الألوان الجميلة طغياناً يلوح لك من ورائه أشباحٌ وهياكل؟! وكيف لها أن تكتمل بين يدي حرب عجَنت الوطن بالمواجع والحزن، وطحنت أبناءه بالموت والحزن والعذاب، أولئك الناس الطيّبون الذين حفرت الحرب في نفوسهم خزّانات ملأتها بحزن العالم كلِّه في بضع سنين؟! وهل للوحةٍ أن تكتمل، وقد غاب عنها أمٌّ لي ضعيفة غرّبتها سود الليالي، كنت أحبُّ أن تكحّل عينها بمشهد ولد لها يقوم في هذا المقام، طالما تراءى لها بعين الأمومة صغيراً، وطالما مدّت له يدَها الحانية، ودعت له الحيَّ القيّوم فكان دعاؤها مفتاح خير وتوفيق وحفظ ورحمة، فلها الله؟! وكيف للوحة أن تكتمل، وفي النفس مِساحاتٌ لا يملؤها إلّا أحبّة أبعدتهم عوادي الزمن كانوا يقيمون في شرفة عالية من القلب لا تصل إليها الطيور؟! فلنا ولهم جميعاً، ولهذا الوطن الحزين

المكلوم، ولأبناء وطني الطيّبين المحزونين المعذّبين اللهُ. واللهَ أدعو أن يكرمنا بفرج عاجل وخلاص قريب، وأن يكون عامُنا هذا خاتمة الأحزان. وشكراً لكم، والحمد لله ربّ العالمين أوّلاً وآخراً.

## المصادر والمراجع

### التي أفدت منها في إعداد هذه الكلمة:


- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت، ط ١٥، ٢٠٠٢، ٣/ ١١٦، ٦/ ١٤٧.
- أعلام الأدب والفن، أدهم آل جندي، دمشق، ١٩٥٨، ٢/ ١١٨-١١٩.
- الأعلام الشرقيّة في المئة الرابعة عشرة، زكي محمد مجاهد، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط ٢، ١٩٩٢، ٢/ ٨٨٥-٥٨٦.
- أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، أحمد تيمور، دار الآفاق العربية - القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٢٩٣-٢٩٦.
- تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، ج١، محمّد مطيع الحافظ، ونزار أباظة، دار الفكر - دمشق، ط١، ١٩٨٦، ص ٤٣١ - ٤٣٥.
- تاريخ المجمع العلمي العربي، أحمد الفتيح، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٥٦، ص ١٢٥-١٢٦، ٢٣٥-٢٣٦.
- حلّ الرموز في عقيدة الدروز، محمد سليم الآمدي البخاري، دراسة وتحقيق حمد بن صالح الحميده، مكتبة دار النصيحة - المدينة المنورة، ط ١، ٢٠١٤.
- خطط الشام، محمد كرد علي، مكتبة النوري - دمشق، ط ٣، ١٩٨٣،

٤/ ٦٦، ٦/ ١٩٩.

- العلّامة سليم البخاري، محمد سعيد الباني، مجلة المجمع العلمي العربي - دمشق، ١٩٢٩، م ٩، ١٢/ ٧٤٢-٧٤٩.
- المجمعيّون الأوائل، د. مازن المبارك، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق، ٢٠١٥، ص ٤٢-٤٣، ٨٩.
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط١، ١٩٩٣، ١/ ٧٧٧.
- منتخبات التواريخ لدمشق، محمد أديب آل تقي الدين الحصني، المطبعة الحديثة - دمشق، ١٩٢٧، ٢/ ٨٤٤-٨٤٥.
- نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة - بيروت، ط١، ٢٠٠٦، ص ٤٧٨-٤٧٩.
- وفاة العلّامة الجليل الشيخ سليم البخاري، مجلة المنار - مصر، كانون الأول - ١٩٢٨، م ١٧/ ٦٣٣-٦٣٤.

* * *